تكتنه[349] الأسرار، بصفائها الروحي تحسّ المجهول، وها هي ذي، تعفّ عن المباذل، وتخلد إلى جلال الهدوء، فالهدوء يسلم إلى الصمت، والصمت يؤدّي إلى حسن الإصغاء، وحسن الإصغاء يمكن في التلقّي، والتلقّي يفضي إلى الاستيعاب، والاستيعاب يفتح الآفاق للتأمّل. فاذا هي صمتت أصغت، وإذا هي أصغت وعت، وإذا هي وعت أقبلت على كلّ ما يلقفه سمعها وبصرها وبالها، تتبيّنه تحت وهج التفكير، وإنّ نظراتها عندئذ لتبدو كأنّما تشرد، وإنّ جبينها ليظهر كأنّما يتعقّد، وإنّ ذهنها ليلوح كأنّما يسرح مترحّلاً فيما وراء المرئي المنظور. * * * ولماذا لا تألف الهدوء؟ لِمَ لا تلزمه وتسير وإيّاه في طريق؟ لم لا تعيشه وهو الحياة التي يحياها كلّ أولئك الذين عاشرت في دنياها الصغيرة؟ إنّها لتعلم كيف اختار أبوها الهدوء رفيقاً له، لا يكادان يفترقان، منذ تفتّحت عيناها على ما حولها لم يكن يغيب عنها انفراده بنفسه الليالي الطويلة في غار حراء، ولا كانت تغفل عن اختلائه أحياناً بحجرته بعد أن يؤوب من غيابه، أو يفرغ من شواغل يوم مشحون، ولا كان يعوزها أن تدرك إلى أيّ مدىً كانت أُمّها تحرص الحرص كلّه على أن توفّر لزوجها الأسباب التي تهيئ له تلك الخلوات. لأمر ما كان محمد يقضي بالجبل معظم لياليه، لأمر ما كان ينقطع عن دنيا الناس، بالغار أو بالدار، لأمر ما كان يؤثر العزلة. أبحدسها شارفت فاطمة سرّ هذا الاعتكاف؟ أم توسّمته بحسّها الشفيف؟ أم طالعتها في محيّا أبيها صفحات من المعاني البليغة؟